آل بكتكين ـ مظفر الدين كوكبري

أو

امارة اربل في عهدهم

(٥٢٢ هـ — ٦٣٠ هـ)

١ — كلمة

تكوّنت في العراق امارات عديدة نالت مكانة في التاريخ . وأغلبها لم تكسب ثقة الشعب ولا حصلت على الاعتماد المطلوب في الادارة أو في خدمة الحضارة والعلوم والآداب . والامارات الصغيرة لا يتفرض لذكرهـا أحياناً بأكثر من العلاقات المهمة الخاصة بالدول الكبرى ، مما أدى الى اغفال أعمالها الداخلية وأوضاعها الذاتية وبذلك صعب البحث لقلة وسائل الوصول الى حقيقة التاريخ لهذه الامارات وتفاصيل حياتها .

وان هذه الامارة من تلك الامارات الصغيرة تكونت في اربل سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م وكانت أقطعتهـا دول الأتابكة في الموصل ايام عماد الدين زنكي (٥٢١ — ٥٤١ هـ) لأحد امرائها (زين الدين علي كوچك) . فصارت تابعة لها مدة . ثم تطورت بها الحالات فتابعت (الدولة الأيوبيه) في الشام ، ثم مالت الى (الخلافة العباسية) لما رأت من جفاء الأيوبيين ، فعدلت عنهم . تقلبت بها الأوضاع السياسية في أطوارها كلها . وهكذا كانت في علومها وآدابها تابعة لهذه الدول . فلم يطرأ عليها فتور ، ولا خلل فعاشت الى رمضان سنة ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م ، فبلغت عمراً تجاوز المئة سنة تمكنت في خلاله من التوجيه السياسي والاجتماعي والثقافي ، وولدت اتصالاً سياسياً وعلمياً بالأقطار الاسلامية العديدة من عربية وغير عربية ، وأحسنت الادارة ، وقامت بمشاريع خيرية مهمة نالت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بها مكانة من نفوس الشعب ، وبقي ذكرها مردداً على الألسنة وفي بطون التواريخ ، لهج به القاصي والداني ، نالت من سمو المكانة ما لم تبلغه الامارات التي توالت على إربل قبلها أو بعدها ...

وربما زاد ذكرها وفاقت غيرها من امارات كبيرة أو دل شغلها عن الأمر الأهم ما شغل من آمال خسيسة قضتها في حروب ، أو ألهتها الاضطرابات من جراء سوء التدبير ، ومن المغامرات التي لا طائل تحتها .

وهذه الامارة لا تزال آثارها شاخصة للعيان ، جليلة في ماهيتها وفي أثرها وتأثيرها ، وصلت الى أقصى ما استطاعت ، فكانت في كل صفحة من صفحاتها تدعو للالتفات ، وتستوقف النظر ، وتستحق التدوين في عامة أمورها حتى في علاقاتها الخارجية بل ان هذه العلاقات مدونة اكثر مما هو خاص بأصل الامارة وداخليتها . لا سيما أيام آخر امرائها (مظفر الدين كوكبري) سارت من أول نشأتها في طريقة مثلى التزمتها . واستمرت في تكامل وعظمة حتى أيامها الأخيرة . لم تدع لتطرق الفساد اثراً ، ولا لسوء الادارة مجالاً ولم تتسرب اليها الأهواء ، ولم يداخلها الغرور وأمل الاستيلاء . وانما اعتبرت استثمار المملكة واستغلالها من خير الوسائل وأجلها مقرونة بحسن الادارة ، وجليل العمران ، فأخذت بنصيب وافر مما غفل عنه كثيرون أعماهم الجهل أو الحرص والطمع ...

ويهمنا ان نعلم عن هذه الامارة ما كان من أمرها مجموعاً ، وندون ما عرف من حياة ، ومن اتقان عمل بقدر ما أمكن العثور عليه من الوثائق ، وما سمحت به النصوص التاريخية . وكأن امراءها تعاهدوا على الصلاح والتزموا الاصلاح ، وتعاقدوا على الخير فضربوا رقماً قياسياً للادارة الحقة ، والسياسة القويمة حتى جاءت أيام (كوكبري) ، فظهرت اكثر ، وبدت أوضح .

ولم يكن خيرهم مقصوراً على أعمالهم لأنفسهم أو لمدنيتهم ، بل تجاوزوها فخدموا الاسلام في جهادهم ، ورعوا الثقافة ببذلهم للمدارس ، وبالصرف بسخاء لاتصال العلوم والآداب ، فنالت هذه الامارة الفخر والأجر ، وعاشت بهناء واطمئنان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرغوباً فيها من الأهلين ومن الخارج ، فكانوا في ارتباط بالعلماء لمختلف الاقطار .

كانت هذه الامارة في الأصل إقطاعاً كأمثالها من امارات عديدة ، تولت إربل أيام الأتابك عماد الدين زنكي في رمضان سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م ، ودامت على الولاء والموالاة للأتابكة من أسرته الى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م وفي التاريخ المذكور مالت الى (الدولة الأيوبية) . وبقيت على الولاء لها مخلصة الاخلاص كله ، لم تلعب بها الأهواء الى سنة ٦٢٧ هـ . ولما رأت من حكم الملك الأشرف[1] ما رأت من جفاء وصدود ، بل من اتفاق بينه وبين بدر الدين لؤلؤ على الوقيعة بها وعزم بدر الدين على أخذ اربل منها مالت الى الخلافة العباسية ، وذهب مظفر الدين كوكبري في المحرم سنة ٦٢٨ هـ — ١٢٣٠ م الى بغداد بعد أن استنجد بالخليفة المستنصر بالله ، فنهى عن التدخل في أمره ، ومن ثم انتمى اليه .

وفي خلال ادارة هذه الامارة لم تدع مجالاً للاطماع ان تتحكم ، بل كانت في يقظة تامة وانتباه زائد لما كان يجري في العلن أو الخفاء فلم تقصر في إعداد العدّة للطوارئ وانما كانت على استعداد لكل ما يتوقع . وفي أيام انقيادها لحكم الأتابكة وتوسع ادارتهم كانت تستخدم قوة جيشها لمصلحة الأتابكة ، ولغاية التمكن من القضاء على حكم المجاورين فكان عملها كبيراً ، فالارتباط مشهود في السياسة العامة ؛ وملحوظ دوماً في عهد الأتابكة ؛ ونعرف درجة ذلك في الاتصال بدولة بني أيوب ، ثم بالخلافة العباسية .

من الضروري معرفة ذلك ، وادراك علاقته بالدولة السلجوقية ، وبالخلافة العباسية والا كنا بعيدين عن الاطلاع على كنه هذه الامارة والاحاطة بموقعها ، أو غافلين عن مجرى الأمور في التاريخ العراقي والاسلامي وسياسته الخارجية .

وهذه المعرفة لا تؤدي الى الهدف المطلوب حتى نعلم سياسة اربل الداخلية وادارتها

(١) تملك الرها سنة ٥٩٨ هـ ـ ١٢٠١ م وكذا حران ، وانتمى اليه بدر الدين لؤلؤ مما دعا الى أن يميل كوكبري الى المعظم والظاهر غازي . وهكذا توترت العلاقات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المحلية ودرجة علاقتها بالاهلين عسكرياً وادارياً وثقافياً ، ومقدار ما أسدى أمراؤها من خدمات متصلة باربل مباشرة .

تحتاج كل هذه الى استعراض الوقائع وتثبيتها ، وهي مبعثرة هنا وهناك في طيات كتب التاريخ ، فمن المحتم علينا أن نثيرها ، ولا نبالي بالصعوبات ونبذل المستطاع في تنظيم هذه الجهود ، ونقدم ما يتجدد عندنا من المعرفة ليضاف ، فتتجلى الحالة بأمثلة لا تستغني بالموجود بل تتطلب الاكمل والكمال .

واذا كان مجرى الحوادث لا يدرك الا من الوقائع الثابتة والاستعانة بها ليؤدي الأغراض المطلوبة اشارة أو صراحة فان الاستكثار منها ، ومراعاة الحالة المشهودة والوضع الجغرافي مما يؤدي الى معرفة القدرة التي كسبتها هذه الامارة من ضبط الأمور فتظهر الادارة الحكيمة والسياسة المستقيمة التي بلغتها .

ولا يكفي هذا وحده ، وانما نحتاج أكثر الى ما يعين أوضاع الدول الاسلامية في حالاتها السياسية نحو الامارات ، ونحو بعضها . وليس لدينا الا ما يلهمه التاريخ مقروناً بالوضع المشهود ، فنرى الصعوبة كبيرة والمهمة شاقة . وربما كان التصدي لها تعرضاً لما يعد عملاً متعباً جداً .

واننا في هذه الحالة استنطقنا نواحي عديدة أمثال ما ذكر . ومن أهم ما هنالك العشائر وما فيها من طاعة ، وما يبدو من أوضاع جغرافية تفسر الحوادث ومثل هذه لا تدرك بسهولة ، فلا تفي الوقائع بالحاجة اذ قد تأتي من جهة واحدة ، ويتخللها اعلانات وتهويلات تتعلق ظاهراً بالخدمة العامة وينطوي باطنها على آمال ونيات تنزع الى الاستيلاء والتحكم ، أو اختلاق معاذير لا أصل لها ، فتظهر في العلاقات الخارجية . وهنا الانتباه واليقظة .

نرى المثبطات كثيرة في الوقوف على مثل هذه الأحوال وادراك كنهها ، والخذلان بين ، تكاد تكون القدرة مفقودة . ولعل في هذه النبذة ما يكون أصلاً للتوسع فيضاف ما أغفل أو أهمل فيتوالى التتبع العلمي ليكمل الغرض التاريخي .

وهذه الكلمة نتيجة إلهام وقائع ، ومجاري تاريخية تعين ماجال في الخاطر ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما رغبنا في بيانه من خلاصة المطالعات في تكوّن هذه الامارة ، ودوامها ، وانقراضها ، أو معرفة سياستها الداخلية والخارجية حتى صارت في طيات التاريخ ، ففي حياتها هذه غرابة وفي ادارتها قدرة التمكن من ناصية الأمور ، ودوام حياتها من أغرب الغرائب بين دول عديدة لها آمالها وأمانيها ، وقد ندرك نياتها من اتفاقاتها ومعاهداتها وما طرأ على هذه الامارة من جرائها ، وللمجاورة دخل في الايضاح ، وللعداء طريقة في الاظهار والاعلان . والنزعات لا تحصى ، والتقصير في التدوين لا ينكر . والعلوم والآداب نالت مكانة ونجحت نجاحاً باهراً لا يقل عما سبقه ، زادت في المصانع الخيرية وأعمال البر ، وقوت ما استطاعت من علاقات ثقافية .

نحن في حاجة عظيمة الى التنظيم والاظهار لتاريخنا هذا وأمثاله . جعلت (التاريخ السياسي) قسماً ، و (التاريخي العلمي والأدبي) قسماً يتلوهما ما يتعلق بالحضارة والعمران جعلناه قسماً آخر بعنوان (تاريخ المجتمع) وبعد ذلك كله أنهينا القول بكلمة ختامية .

٢ — التاريخ السياسي

١ — السياسة الدولية

عاشت الدولة العباسية بصولة وقوة من سنة ١٣٢هـ — ٧٤٩ م ودامت مدة بلغت بها أوج الكمال ، ثم تناوبتها أحداث فلت من غربها وخضدت من شوكتها بحيث اضطرب فيها حبل الأمن داخلاً وخارجاً واستمرت على ذلك حتى قضي على استقلالها بتغلب (البويهيين) ودخولهم بغداد في ١٢ جمادى الاولى سنة ٣٣٤هـ — ٩٤٥ م . وأزيل حكم هؤلاء من بغداد بعد مضي اكثر من مائة سنة في ٢٥ رمضان سنة ٤٤٧هـ — ١٠٥٥ م بتغلب (دولة آل سلجوق) ، فحلت محلهم . وهذه الدولة ظهرت بقوة فائقة سيطرت بها على الخلافة وعلى أقطار عديدة . ولم تقنع بالطاعة وحدها ، ولا اكتفت بالاذعان بل أرادت ان تكون هذه الامارات خالصة لها فأبدلت اماراتها بمماليك من الترك أو امراء منهم وبينهم من تسمى بـ (الأتابكة) مثل (الخوارزمشاهية) ، و (أتابكة الموصل) ، و وأتابكة آخرين ، فمحوا الامارات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأولى وأقصوها عن الحكم ، وصار أمر البلاد بأيديهم رأساً فلم يقنعوا بالسلطة العامة ، بل انتزعوا الممالك ، وقضوا على اماراتها ، فصارت في حكم أمرائها اقطاعاً لهم .

جروا على ذلك . وكادوا ينجحون في التسلط على الممالك واماراتها ويسيطرون على البلاد وأن يكونوا بمأمن من الغوائل لو لا ان الأمور لم تجر دائماً طبق المراد ، وانما تولد الشقاق في نفس الأسرة المالكة فداخل أفرادها الطمع ، وامراءها الاثرة ، فتطرق اليها الخلاف مما ادى الى التطاحن والخصام ، والهى عن السيطرة المنشودة أو التمكن من الادارة بتلك الهمة .

وشعر أهل الاقطاع من الأتابكة بقوة ، وجل ما عملوا انهم ناصروا بعض الأمراء للتمكن واستعان هؤلاء الأمراء بهم لصد غائلة المطالبين بالسلطنة ، أو الميل الى الثائرين من الأسرة المالكة ، فولد ذلك نخوة في نفوس الأتابكة ، فأضمروا الانفصال عن أصل الدولة . شعروا بأن الضعف استولى عليها ، وكان هؤلاء الأتابكة قوة بيدها زمام الأمر ، فتظاهروا بالتابعية ، ولكنهم انسلوا منها ، وهكذا مضوا في طريق الاستقلال ، ومن أشهر هؤلاء (اتابكة الموصل) ، وان امارة اربل كانت تابعة لها .

والخلافة العباسية حاولت الاستفادة من ضعف الدولة السلجوقية وانشقاقها على نفسها ، وهي تحرق الارم على هؤلاء المتغلبة الذين سلبوها استقلالها ، ولكنها كانت عاجزة لا تملك من القوة ما تستطيع عمله ، وبغداد وحدها لا تكفي ، وهي أيضاً في تشتت آراء ، واضطراب أوضاع ، وليس في وسعها رفع التغلب ، وقد حرمت الوسائل . واذا كانت قد استطاعت في أيام المقتفي رفع التسلط عن بغداد سنة ٥٤٧ هـ ١١٦٢ م فلم تقدر أن تقاوم الأتابكة ، ولا ان تسترد ما تغلبوا عليه ، ولم تتمكن حتى من اربل ، أو من دقوقا ، أو تكريت ، أو شهرزور ، أو الحلة ... ولم تقدر ان تمس الأتابكة في الموصل ، ولا الأيوبيين في الشام وانما تمكنت من بعض الأطراف .

وفي هذه الحالة من ضعف آل سلجوق ، ومن الخلافة تيسر للأتابكة أن يعيشوا فيهددوا الامارات الصغيرة المجاورة والخلافة معاً حتى بعد انقراض الدولة السلجوقية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٤ م . ولم يكن في مقدور الخلافة أن تخضع أتابكة الموصل ولا أتابكة اربل ، بل كانت مهددة بالخوارزميين ، فصار هؤلاء يحاولون ان يحلوا منها محل الدولة السلجوقية ابان تغلبها مما ولد لها مشاكل بسبب هذه المشادة التي نهكت الدولة العباسية ، ونفرت الأهلين منها أيام الخليفة الناصر خاصة .

عاشت دولة الأتابكة ولم تخش الدولة العباسية ، ومثلها دولة الأيوبيين . وهكذا كانت الامارات المشتقة من الاتابكة و (امارة اربل) إحداها .

وموضوع بحثنا (امارة اربل) ، وهذه لم تتمكن الخلافة من اخضاعها ، ولا دولة الاتابكة في الموصل استطاعت القبض على قيادها . ولا الدولة الأيوبية قدرت أن تتسلط عليها ، بل كل واحدة كانت تخطب ودها ، وترغب في أن تميل اليها لتعديل الكفة ، والاحتفاظ بالموازنة . وكانت سياستها التهديد للواحدة بالأخرى على الرغم من ضعفها بل برهنت مراراً على قدرة في جيشها في واقعة (حطين) ، وفي حادث هجوم أتابكة الموصل عليها أيام مجاهد الدين قايماز وانفصاله من اربل ، وفي حادث قطعها العلاقات من الدولة الأيوبية ...

ويصح أن تعتبر أدوارها التاريخية :

١ — تابعيتها لأتابكة الموصل . من سنة ٥٢٢ هـ الى سنة ٥٧٨ هـ .

٢ — انقيادها لآل أيوب . من هذا التاريخ الى سنه ٦٢٧ هـ .

٣ — طاعتها للخلافة العباسية . من ذلك العهد الى سنة ٦٣٠ هـ .

والنصوص التاريخية تعين أوضاعها . كانت تحسب حسيداً وتفكر في أمرها تفكيراً عميقاً ، ولم تترك شئونها للمقدرات ، أو لتلاعب الأهواء بل كانت المسيطرة على الحالة . الحاكمة على الموقف .

وفي هذه كلها ما يعين وضعها السياسي بين (الدول الاسلامية) ويلتمس في حسن التدبير ، والالتفات الى تنظيم الحالة المالية في ميزانيتها . وفرت مبالغ مهمة للطوارئ ، وأخرى للجيش ، وهكذا للمشاريع الخيرية وسائر الأمور . ولم تقف في حالاتها عند ذلك بل راعت أمر المسلمين ، وقامت بالمصالح العامة من مساعدات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حربية ، وفك أسرى ، ومشاريع ثقافية ، وصلات علمية ، ومعاهد دينية . ولعل في إلمام الوقائع ما يبصر اكثر من هذا الاجمال فتنجلي أمورها التاريخية واضحة لا خفاء فيها ولا ابهام .

ولا شك ان تاريخ هذه الامارة يستحق البحث من وجوه ، وأرجو ان يكون هذا نواة صالحة للتوسع .

٢ — آل بكتكين

(امراء هذه الأسرة)

ان السياسة الخارجية تظهر جليًا في هذه الامارة وعلاقاتها بالدول ، وكذا الارتباط بالأهلين وأمر ادارتهم داخليًا وهذه كلها لا تتعين الا في وقائعها المعروفة وما قامت به من أعمال . وكل ما نعلمه ان هذه الامارة كانت إقطاعًا من أتابكة الموصل في شهر رمضان سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م فقامت أعمال حربية وسياسية وثقافية .

ظهرت قدرتها فيما حكمته من أرض ما بين الزابين المسماة بـ (صهران) أو (صوران) من مملكة اربل . وفي اقطاعها ، ومتابعتها للموصل ، ثم انقيادها للدولة الأيوبية فالخلافة العباسية مما توضحه الحوادث التاريخية والشؤون السياسية في تفسير هذا الميل ، ويتخلل ذلك بعض الأوضاع الخارجية والداخلية معًا .

وفي امارتهم هذه أرضوا الأهلين ، فلم يكونوا عتاة جبارين ، ولا أرهقوا اربل اكثر مما تطيق ، وانما عاملوها بالحسنى ، وراعوا رغبتها ، وولدوا فيها ثقافة بلغت من الشهرة مبلغًا عظيمًا ، فصارت مطمح أنظار العلماء ، ومحط رحال أهل الثقافة ، وآثار هذه الامارة في اربل لا تحصى . ويتعين ذلك بالكلام على كل واحد من امرائهم حتى نختمها بكبير هذه الأسرة وآخرهم مظفر الدين كوكبري ... وهذه قائمة امرائهم .

١ — زين الدين علي كوچك بن بكتكين ولي اربل سنة ٥٢٢ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ — مظفر الدين كوكبري . حكمها من سنة ٥٦٣ هـ حين وفاة والده .

٣ — زين الدين يوسف بنالتكين بن علي كوچك . صار أميراً مكان اخيه سنة ٥٦٧ هـ .

٤ — مظفر الدين كوكبري للمرة الثانية والأخيرة . وليها بعد وفاة أخيه سنة ٥٨٦ هـ ودام حكمه الى ان توفي في رمضان سنة ٦٣٠ هـ .

وتهمنا معرفة تاريخ هـذه الامارة باعتبارها جزءاً من تاريخ العراق لا سيما وقد حصلت على مكانة ذائعة . وكان ابن المستوفي وضع تاريخاً لها سماه (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل) لم يصل الينا منه إلاّ ما علم اخيراً من وجود جزء منه في لندن . وعرف بعض النقل منه مفرقاً هنا وهناك . وآخرون لخصوه أو كتبوا تاريخ اربل ممن لم تصل الينا تواريخهم[1] .

وغالب المراجع الأخرى تتعلق بالموصل ، أو بالشام وأنحائها ، وبالخلافة العباسية وصلتها بمؤرخيها ويغلب على هذه الشمول ، أو الخصوصية بدولة الأتابكة ، أو بدولة آل أيوب . وفي هذه تعرض لبعض المطالب . وقلما نرى من الحوادث ماولد شهرة عامة .

لم تصل الينا الا نتف من هذا التاريخ مبددة . وغاية ما يقال فيها انها (تاريخ علاقات) ، فالنقص فيها ظاهر ، وقد رجعنا اليها ، والى النقود المضروبة ، والمدونات العديدة . مزجناها بمشاهدات الأوضاع الطبيعية أو الجغرافية ، والعشائر والأهلين . والآثار الأدبية ، والعلمية . فجمعنا ما يصلح من تاريخ هذه الامارة بالرجوع الى الأتابكة وتاريخهم في العهد الأول ، والى الدولة الأيوبية في العهد الثاني ، والى الخلافة العباسية ومدوناتها في الزمن الثالث من أدوار حياتها . فتكونت جملة صالحة مما يأتي النقل منه في حينه . وعلى كل حال كانت هذه الامارة جديرة بالبحث .

٢ — زين الدين علي كوچك

هو ابن بكتكين ، أول أمراء هذه الأسرة باربل . كان استولى على اربل

(١) كشف الظنون ـ تاريخ اربل . والاعلان بالتوبيخ ص ١٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عماد الدين زنكي في رمضان سنة ٥٢٢ هـ[1] فجعلها اقطاعه . وعرف بـ (كوچك) لأنه كان صغير الجسم . أصله من التركمان من مماليك قسيم الدولة والد عماد الدين .

وفي الغالب لم يعرف عن الامارات الصغيرة مثل اربل ، ولا ذكر عن أمرائها ما يشفي غلة . فاذا علمنا بعض اسماء أمراء اربل مثل أبي الهيجاء ، وابنه الأمير فضل[2] فلا نعرف اكثر من ذلك . ولما قتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م ما كان عماد الدين بلغ العشر سنوات . وكذا كان زين الدين علي كوچك صغيراً . فتقلبت الأحوال بعماد الدين زنكي ، واجتمع اليه اعوان والده حتى دخل الموصل واليا في ١٠ شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ — ١٢٧ م فأسس امارة الأتابكة في الموصل وفي رمضان سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٨ م استولى على اربل ، فصارت اقطاعاً لزين الدين وأصبح تابعاً لامارة الموصل .

تحولت الأحوال بهذه الامارة وتغير وضعها فمالت للأيوبيين وتم الاتفاق بينهما في ذي الحجة سنة ٥٧٩ هـ - ١١٨٤ م وبعدها في سنة ٦٢٧ هـ انحرفت عن الدولة الأيوبية ، وفي المحرم سنة ٦٢٨ هـ — ١٢٥٠ م ألحقت بالخلافة العباسية حتى انقرضت هذه الامارة في رمضان سنة ٦٣٠ هـ بوفاة مظفر الدين كوكبري .

وزين الدين علي كوچك أرضى دولة الأتابكة لما قام به من خدمات فحصل منها على اقطاع اخرى مثل الهكارية (العمادية وأنحائها) ، وعقر الحميدية وحران وتكريت وشهرزور . وتقدر مكانة هذا الاقطاع في الخدمات التي أسداها بل اعتقد ان دوام ملك الأتابكة وتوسعه مدين لاربل وحسن ادارة المترجم فيها ، والجيش الذي استخدمه في القضاء على الامارات الصغيرة .

وكان رجال عماد الدين زنكي أصحاب مواهب لم يتهيأ مثلهم في دولة الا قويت ادارتها ونشطت في حروبها ، واكتسبت سياسة مكينة في قوام حكم ،

(١) كتاب الروضتين طبعة سنة ١٢٨٧ وادي النيل بمصر القاهرة ج ١ ص ٣٠

(٢) الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٨٧ طبعة جامعة برنستون الولايات المتحدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتجلت قدرتها . ومن أبرز رجالها نصير الدين جقر بن يعقوب ، كان نائب عماد الدين زنكي . ولما قتل في ذي القعدة سنة ٥٣٩ هـ — ١١٤٥ م استقر رأي الأتابك في ان يكون (زين الدين علي كوچك) نائبه على الموصل ، ولم يتعرض لاقطاعه في اربل وغيرها ، وبقيت هذه الاقطاعات في أيدي نوابه .

قال ابن الأثير في أتابكة الموصل :

« استقر زين الدين وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين ، فاطمأن الناس وأمنوا ، وازدادت البلاد معه عمارة . » اهـ

وقال الفارقي في تاريخه :

« كان قد قتله غلمانه في ٨ ذي القعدة من السنة ورتب في الموصل زين الدين علي كوچك وكان لقي الناس من نصير الدين شدة من الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط فلما ولي زين الدين أزال ذلك جميعه فأحسن الى الناس والرعايا وجميع البلاد ورأى الناس منه كل خير الى ان مات » اهـ [1] ومدح ابن القلانسي سيرته على خلاف ما جاء في تاريخ الفارقي .

دام استقرار زين الدين علي كوچك مدة حياة عماد الدين زنكي ، وبعد ان قتل زنكي في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ ١١٤٦ م تمكن زين الدين في الدولة الأتابكية تمكناً عظيماً [2] . أقره الأتابك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (٥٤١ هـ — ٥٤٤ هـ) في نيابة الموصل ، وزاد في اقطاعه كما كان ذلك ايام والده ، ولم يتغير شيء من الوضع . وكيف يتغير وكان قد أزال كل تذمر كان في نيابة سابقه ولو تجنب كل صاحب سلطة مما يتذمر منه من سلف لبلغت الادارة عندنا حداً لائقاً . فلم يختل أمر في الادارة ، ولا طرأ فساد .

ولا يهمنا التوسع في ادارة دولة الأتابكة ، وانما المقصود أن نعرف ادارة اربل في أيام هذه الامارة والا فان اعمال المترجم الخيرية في الموصل لا تنكر ،

(١) تاريخ أبي يعلى حمزة ابن القلانسي ـ هامش ص ٢٨١ وفصل ابن القلانسي قتله نصير الدين جقر .

(٢) تاريخ الأتابكة في الموصل ص ١٤٢ وفي ابن خلكان توفي عماد الدين زنكي في ١٥ ربيع الآخر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واعماله مشهودة ، وهي مشرّفة له وقدوة لمن جاء بعده ومن أهمها مدرسته ، كما انه قبض على زمام الأمور ، وأبدى قدرة تضاءلت دونها غيرها ، فاكتسب الثقة التامة من الأهلين والأتابكة معاً . ورافقه التوفيق في ادارته ونال التوجه بكل معناه .

وهذه لم تمنع ان يلتفت زين الدين علي كوچك نحو اربل ، ومراقبة نوابه فيها . فكلّ منهم أراد ارضاءه في نيابته في الطريقة التي مشى عليها في الموصل ، فحاول هؤلاء النواب ان يتخذوا هذا الأمير قدوتهم في ادارة اربل ، أو رسم لهم ما أراد فنفذوا حرفياً ، وقاموا بمثل ما قام به هذا الرجل الكامل من اعتدال وتبصر وعمل نافع .

دام في اخلاصه لسيف الدين غازي الى ان توفي في آخر جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م ، فولي أمر الأتابكة بعده اخوه قطب الدين مودود (٥٤٤ هـ - ٥٦٥ هـ) فأبقاه على ما كان عليه ، وزين الدين مدبر دولته وصاحب رأيه ، فكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة[1] .

وهنا نقول ان ادارة اربل ظهرت في نوابه وحوادثه الأخرى البارزة .

١ — انه سار بجيش على بغداد لمناصرة السلطان محمد بن السلطان محمود من رجال الدولة السلجوقية . وكان هذا الحادث سنة ٥٥١ هـ - ٥٥٢ . وفي حربه هذه كان يميل الى الدولة العباسية ، ويناصرها باطناً ، ولم يقصد الوقيعة بها ، وجرت مراسلات بينه وبين الدولة العباسية أظهر فيها ميله اليها[2] .

يدل على ذلك ما جرى من الاحتفال به عندما قصد حج بيت الله الحرام سنة ٥٥٨ هـ ، فمرّ ببغداد وكان قد نهاه كثيرون من جراء ما وقع من حرب

(١) ابن خلكان : طبعة سنة ١٢٧٥ هـ بولاق مصر . (٢) التفصيل في الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٨٦ طبعة بولاق وابن القلانسي ص ٣٤٣ وفي أخبار الدولة السلجوقية المسمى (زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) لصدر الدين الحسيني بتصحيح محمد اقبال مدرس اللغة الفارسية في فنجاب طبعه في لاهور سنة ١٩٣٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بغداد ، حذره اصحابه من جراء مناصرته الملك محمد السلجوقي . فلما وصل الى بغداد أكرمه الخليفة المستنجد بالله العباسي ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه . وفي هذا الاحتفال أبدى أموراً كانت محل التفات الخليفة والزيادة في انعامه .

وذلك انه لما لبس الخلعة وكانت طويلة عليه لقصره مدّ يده الى كمرانه واخرج ما شدّ به وسطه ، وقصر الجبة ، فنظر الخليفة المستنجد اليه ، فاستحسن ذلك منه وقال لمن عنده مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم . فلما دخل قبل يده ثم خرج من عنده بعد ان حادثه بالتركية وكان المستنجد يتكلم بها جيداً ، فلما خرج نظر اليه المستنجد من شباك وقد اخرج شيئاً من السيف الذي انعم به عليه من الديوان فلم يره جيداً ، وهو يومي برأسه يعني انه غير جيد ، فأرسل اليه سيفاً آخر ، وقال للرسول : — يقول لك أمير المؤمنين ذاك السيف يترك ، وهذا تقاتل به اعداء امير المؤمنين واعداء المسلمين .

فرد وجهه وقبّل الأرض ، وتقلده . ثم مضى في طريقه الى الحج ، فأحسن الى الناس في الطريق وكثر الصدقات [1] .

٢ — في سنة ٥٥٥ هـ كان قد سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ، وكان زين الدين معه ليتولى السلطنة ، فرأى في طريقه ما رأى من خلل في ادارة الجيش وتسلط الأمراء ، فأبدى حكمة وعقلاً في الانسلال والرجوع لما عرف من نتائج تؤدي اليها الحالة [2] .

٣ — في سنة ٥٥٩ هـ ارسله قطب الدين مودود منجداً الملك العادل نور الدين وكان قد كاتب نور الدين الأطراف ، وكاتب العباد والزهاد المنقطعين فذكر لهم ما يلقى المسلمون من الافرنج ، وما ينالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة ، فأمدوه للهياج الحاصل في الممالك الاسلامية من جراء ما قام به هؤلاء الزهاد والعباد من دعوة ، فحذر

(١) الدولة الأتابكية ص ٢٠٧ . (٢) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الملوك والأمراء ان يفسد عليهم الأمر في ادارتهم ، فكانت (واقعة حارم) [١] .

٤ — في سنة ٥٦٣ هـ سار زين الدين الى اربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع الى الاتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار وحرّان ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها ، وتكريت وشهرزور .

وسبب ذلك انه طعن في السنّ واصابه عمى وصمم ، فتنازل عن كل ما في يده من اقطاعات وأبقى اربل وحدها بيده .

٥ — في السنة التي ذهب بها الى اربل توفي في ١١ ذي القعدة سنة ٥٦٣ هـ — ١١٦٨ م . وكان استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته . وكان في اربل مرقده الأخير [٢] . ولا يزال معروفاً .

٦ — حياته الخاصة : كان خيراً عادلاً ، حسن السيرة جواداً ، محافظاً على حسن العهد ، واداء الامانة ، قليل الغدر بل عديمه . وكان اذا وعد بشيء لا بدّ له من ان يفعله وان كان فعله خطيراً . وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه مايدلّ على سلامة صدره وغفلته حتى يظهر منه مايدل على افراط الذكاء وغلبة الدهاء .

قال ابن الأثير : « بلغني انه اتاه بعض اصحابه بذنب فرس ذكر انه نفق له فأمر له بفرس فتداول ذلك الذنب ١٢ رجلاً كلهم يأخذ فرساً ، فلما احضره آخرهم قال له اما تستحيون مني كما استحي منكم قد احضر هذا الذنب عندي ١٢ رجلاً وانا اتغافل لئلا يخجل احدكم اتظنون انني لا اعرفه بلى والله انما اردت ان يصلكم عطائي بغير منّ ولا تكدير فلم تتركوني وامر له بفرس آخر ... » اهـ

وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً ، وكانت له البلاد الكثيرة ، فلم يخلف شيئاً بل نفد جميعه في العطاء والانعام على الناس فكان يلبس الغليظ ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي اليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك .

---

(١) الدولة الأتابكية ص ٢٢٠ [وكتاب الروضتين ج ١ ص ١٣٣] والتفصيل هناك .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٢٠ والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان من أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركياً أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً ، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها . بلغني انه مدحه الحيص بيص[1] فلما أراد الإنشاد قال له انا لا أدري ما تقول لكنني اعلم انك تريد شيئاً وامر له بخمسمائة دينار واعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك نحو الف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها ولما توفي كان الحاكم باربل خادمه مجاهد بن قايماز وهو المتولي لأمورها[2] .

وجاء في اوراق قديمة لمؤلف مجهول : « كان قصيراً جداً ، عادلاً ، حسن السيرة ، كثير الأمانة ... ميمون النقيبة ، لم يكسر جيش هو فيه ، وكان بخيلاً ، ثم انه جاد في آخر عمره ، وبنى المدارس والربط والقناطر والجسور ... »اه[3] .

يتبع : (بغداد) **عباس العزاوي**

---

(١) ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٥ (٢) تاريخ أتابكه الموصل ص ٢٤٤

(٣) الظاهر أن هذه الأوراق من تاريخ الذهبي ولم أتمكن من المقابلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net